

آداب الطريق

للمؤلف عبد الحفيظ فرغلي القرني

الأستاذ بدار المعلمات بالزمالك

(٥)

وهذه المثالية النادرة . أين منها ما نراه الآن من دواعي التفكك والتخاذل بين أصحاب المجتمع الحديث . الذين لا يراعون حرمة الجوار والقراية والأخوة الإسلامية والوطنية والإنسانية ؟ . إن البيت الواحد يضم المائتين والعشرين في ليلة واحدة . إن الأعياد والمواسم تأتي وتذهب دون أن يجتمع شمل كثير من الأقرباء والأصدقاء في جلسة واحدة ، تجدد الود ، وتمحو مساة الأيام .

إن الأخوة الصادقة لا نجدوها اليوم إلا بين أفراد وصلوا حياتهم بإحدى الطرق التي وحدت غايتهم ومشاعرهم ، وألفت بين قلوبهم ، فأثر الأخ منهم أخاه على روحه وجدد بذلك معالم الإسلام الأولى التي جمعت بين المسكين والمديني في آية من أروع الآيات لا تزال تلى ويتعبد بتلاوتها ، والذين تبوءوا الدار والأيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ، ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ، والذين جاءوا من بعدهم يقولون : ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا إنك رؤوف رحيم .

والضيق في رجل باذل حقا بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان ؛ لأنه يرى أن توكله على الله وحياؤه منه يمنعانه من الشح . وبهذا أصبح ذا مروءة نادرة تستدعي بذل النفس عند الحاجة ، وهو غير ضنين بها على أخيه في الله أو على نصرة الحق والوطن ، وهذه الصفة خليقة بأن تكون أساساً من أسس المجتمع القوي المتماسك الذي يسمى أفراداً في سبيل إسعاد مجتمعه ، ولا يضن أحدهم بنفسه أو نفيس في العمل على رفعة شأنه .

ولا يفهم هذا الفهم العالى إلا رجل وضع اعتبار القيم الروحية فوق كل اعتبار ورأى أن شخصه وهو فرد لا قيمة له بجوار هذه المجموعة التى يجب أن تكون لها السيادة والعزة والكرامة ، فسعادته من سعادتها ، وعزته من عزتها ، وكرامته مستمدة من كرامتها ، وتلك أبسط المبادئ التى يدين بها الصوفى . ألسنا نراه يؤثر الفقر على الغنى ، والخمول على الشهرة والتبعية على القيادة إن رأى فى ذلك وجه أن الخير للوطن والنفع للجموع ؟ لا يقال ذلك سقوط همه أو عدم طموح . كلا ، ولكنه زهد فى المظاهر ، وإيثار منه ، وتضحية بالشهوة ، واقتناع بأن العمل والجهاد ليس وفقاً على الرئيس دون المردوس ، أو السيد دون المسود ، ولكنه أمر مطلوب من كليهما ، وعلى كل منهما واجب يؤديه بإخلاص ، وأداء الواجب بإخلاص متعة وما بعدها متعة .

فأين هذه المثل الكريمة مما نراه الآن فى مجتمعنا من صراع على المناصب ، واستهانة بالواجبات ، ودس رخيص للزملاء فى سبيل الصعود على أكتافهم ، حتى نشأت طبقة الوصوليين ، الذين لا عمل لهم إلا التقرب للرؤساء ، والتعلق لهم ، والتخلق أمامهم بما ليس فيهم ، طمعاً فى كسب مادى أو أدبى ؟ .

وقد بدأت والله الحمد تنبئه لهم أعين المسئولين ، بعد أن أدركت الخطر الناجم عنهم وحاولت التخلص منهم ، والقضاء عليهم .

أين هذا التسامح الكريم والبذل الصادق والمروءة والإخلاص ، الذى نراه بين طائفة الصوفية ، بما يسود الآن بين دعاة الانتهازية والأنانية الذين لا هم لهم إلا النفع الخاص ، واغتصاب لقمة العيش ، من أفواه إخوانهم المواطنين ، ولقد تغلغل هذا الداء الويليل بين مختلف الطوائف ، فلم يسلم منه التجار فى الأسواق ولا الموظفون فى المكاتب ، وليس من الغريب أن نقرأ فى الصحف عن احتكار سلعة ، أو غش صنف أو حادثة رشوة أو غير ذلك ، مما يهدد كيان الأخلاق فى الصميم ، ويدفع بحجلة التقدم إلى الوراء ، ويعرقل سير النهضة الحديثة التى أذن الله أن يشرق نورها فيعم الآفاق . ورغم أن الدولة قد وضعت من القوانين الرادعة ، ما يكفل لأمثال هؤلاء أن يرتدعوا عن غيهم ، إلا أن الضمير الميت لا يزال مركباً فى بعض النفوس فيوحى إلى صاحبه الاستهتار بالقيم وعدم المبالاة بالأخلاق ، ويجعله يعيش فى دوامة من الغرور والغفلة . حتى يفتضح أمره ، ويقضى على كيده وشره .

والصوفية من علماء المجتمع قديما وحديثا ، ولو أننا تصفحنا ما كتب الشعرا

في القرن العاشر لوجدنا آيات بينات ، ونظرات نافذات في نقد المجتمع وتوجيهه ،
والأخذ بيده إلى مدارج الرقي والكمال .

ولو أننا نظرنا إلى التصوف نظرة منصفة مجردة من كل العوامل الشخصية ،
لرأينا من المتصوفة رجال إصلاح وجهاد وعمل ، وكثير منهم لقي مصرعه شهيداً
في سبيل الله والوطن ، وحسبك دليلاً على ذلك شجاعتهم الأدبية ، التي تفردوا بها ،
فلم يأبهوا بيسوف السلاطين والحكام ، حين تعرضوا لهم ينصحونهم ويوجهونهم
ويقومونهم ، وينتقدون أعمالهم ، وهذا رجل منهم يعترض سليمان بن عبد الملك
فيقول له : « سأطلق لساني بما خرست عنه الألسن تأدية لحق الله تعالى . لأنه قد
اكتشفك رجال أساءوا الاختيار لأنفسهم ، وابتاعوا دنياك بدينهم ، ورضاك بسخط
ربهم ، . . الخ ما قال ، ولو تتبعنا أخبار الفضيل بن عياض ، وأبي حازم ، وبنان
الجمال ، والحسن البصري ، وابن السماك ، وابن عبيد ، والأوزاعي ، وغيرهم من
متقدمي الصوفية والأجلاء لرأينا مواقف عجيبة في تذكيرهم الخلفاء والأمراء ، وما
ذلك إلا لأنهم يعتبرون أنفسهم مسئولين عن تذكير الملوك رغبة في إصلاح شأن
الرعية وإصلاح المجتمع .

والتاريخ يحددنا عن أبي الحسن الشاذلي . . . رضي الله عنه — الذي لم يمنعه
كف بصره عن الاشتراك في صد الحروب الصليبية معبأ النفوس والأرواح ، مذكراً
بالشهادة ، مذكياً للقومية ، ملبياً داعي الله والوطن .

ونحن نعتبر الزعيم أحمد عرابي من أبطال الصوفية . الذي لم يعجبه الظلم الواقع
على كاهل لإخوانه المواطنين ، فذهب يدافع عن حقوقهم ، ويعلمها ثورة عاتية ضد
رجال القصر ومعصديهم .

وفي عصرنا هذا تطور التصوف تطوراً كبيراً ، واتجهت العناية إلى تطهير صفوفه
من أدعيائه الذين أساءوا إليه إساءة بالغة ، وكان الضرر العائد عليه منهم أشد بكثير
من الضرر العائد عليه من خصومه الظاهرين . فهم قد أضافوا إليه باسم الدعوى
الكاذبة كثيراً من الجود والضعف والتخلف والرياء والاستغلال وادعاء الولاية
والشعوذة . والتصوف من كل ذلك براء . فما هو إلا اليقين الصادق ، والخلق الكامل
والتمسك بالشرعية الناصعة ، والبعد عن مواطن الشبهات والذلل .

ولذلك لا يجد الإنسان غضاظة الآن في أن ينتسب إلى التصوف ، بعد أن كان

يأنف منه في العهود الماضية ، لأنه قد انتقل كما قال — أحد الأدباء — من صفوف أصحاب اللحي الكبيرة ، والمساجح والملابس الحمراء والخضراء ، إلى صفوف الكبراء والوزراء ، لأن الطبقة المثقفة قد عرفت قيمته وأدركت ثمرته وعرفت أن الخير كل الخير في هذه الاتجاهات الصوفية التي تنقل الإنسان من كدورة المادة إلى صفاء الروح وأنه لا خلاص للإنسانية من هذه الموجات المتضاربة ، والشهوات المتصارعة ، والمذاهب المتناقضة ، والآراء المغرضة التي تملئها النفوس الموبوءة بشقى الأدوية والأمراض إلا باللجوء إلى هذا الفضاء الروجاني المعمور بالمثل الكريمة ، والقيم الأخلاقية السامية ، والذي يهدف إلى خلق مدينة فاضلة ، لا مكان فيها للتصارع والأطاع والأحقاد والمشاكل النفسية والاجتماعية المعقدة ؟

للحديث بقية بتوفيق الله تعالى

